المتنبي

طبيب نفساني بالسليقة

للدكتور : يوسف عبدالله الحميدان

لو حصل وسألك سائل ، عن شاعر من شعراء العرب ... سألك عن أي جانب من جوانب حياته أو شعره .. فما هو ردّك ؟!... بدون شك سيكون الرد متناسباً مع السؤال تماماً ... تشترك فيه كل جوارحك .. ولنضرب لذلك مثلاً .. شاعر النيل حافظ ابراهيم رحمه الله .. لو سألك سائل عن تقويم هذا البيت الذي يتهم فيه (الانجليز والاستعمار الأجنبي) : —

لم يبق شيء من الدنيا بأيدينا
الا بقية دمع في مآقينا !!!

فماذا تجيب ؟!.... للحقيقة نقول .. اذا كان المسؤول أديباً .. فسوف يجيبك عليه بصفحات وصفحات .. واذا كان المسؤول شاعراً فسوف يجيبك عليه بكتاب .. أما إذا كان المسؤول طبيباً مثقفاً ثاقب الفهم .. فسوف يجيبك عليه بأكثر من كتاب .

لقد حصل معي هذا الشيء وأنا استعرض كتاباً للأستاذ عبدالله ابن ادريس أمد الله في عمره : حصل معي وأنا أقرأ له فكرة .. يقول فيها (وتطورت الفكرة في ذهني الى شيء اكثر جدية وجدة ... وابلغ عمقاً وتأثيراً .. الى دراسة هذا الشعر على نحو جديد من البحث السيكولوجي .. أي النفسي .. للعوامل الاجتماعية والأحداث والمؤثرات الانسانية التي ساعدت على تطور الشعر في نجد .. كما في البلاد العربية الأخرى ... بل وربط شعر كل شاعر بالنظرية الفرويدية ... أي النفسية (والشعور واللاشعور) .. من حيث استشفاف نفسية الشاعر وعواملها الحياتية من شعره .. ذلك أن سيكولوجية الشاعر .. أي نفسيته ...هي التي تطبع بمؤثراتها وخصائصها ومنازعها ومناصيها المختلفة) .. انتهى .

الفرق بيني وبين الأستاذ ابن ادريس ... أنه جعل من المصطلحات الحديثة (لعلم النفس) دليلاً على ما يقول ... أما أنا فقد جعلت من قول (المتنبي) مجهراً استشف به نفسيات الآخرين .. نفسيات الأفراد والمجتمعات التي كان يعيش فيها ... قد أكون مبالغاً بعض الشيء في هذه المقارنة .. لأنني سأكون واضحاً فيما سأقول .. ولسوف أعود الى علماء النفس المعاصرين .. لأرى ماذا يقولون .

انهم بلا شك يقولون اشياء كثيرة .. منها ما هو محدود ... ومنها ما هو غير محدود .. وسوف أوجز انفعها للناس بهذه الأسطر : —

أولا : — يقال هناك دوافع نفسية داخلية :

أ — للتوازن الحيوي ... تكمن وراء (السلوك الانساني) وتتحكم به ... فإذا لم يستطع الفرد الحي اشباع حاجاته ... يلجأ الى القيام بأنواع مختلفة من النشاط الحيوي .. يرمي به الى استعادة حالة التوازن .

ب — ودوافع نفسية لخصائص السلوك الذي يتميز بالنشاط الحيوي .. (والاستمرار) الى أن يشبع هذه الدوافع ... ثم الى (التنوع) عند الكائن الحي .. الذي يتبعه تنويع في السلوك ، وتغيير في اساليب النشاط الحيوي .. الى أن يشبع تلك الدوافع .

ج — وليس هناك من قياس ظاهر للدوافع الخفية الا عن طريق (مظاهر السلوك) .

ثانياً : — واكثر من هذا .. توجد أصناف للدوافع النفسية .. منها : —

أ — الدوافع الأولية ... أو الطبيعية (الفسيولوجية) .... كالبحث عن الطعام .. أو الشراب .. أو الأمومة .. أو الجنس .. وتجنب الألم .. الخ .

ب — الدوافع الثانوية .... أو الاجتماعية (المكتسبة) .. كالحاجة الى الاجتماع .. والى التملك .. والى تقدير الذات .. والى الأمن والاستقرار .. الخ .

ثالثا : — بل وهناك انفعالات نفسية .. من خصائصها : —

ا — الضعف والاستجابة .

ب — القوة والصد .

ج — السلبية الذاتية .

السيطرة على هذه الانفعالات تتوقف على عدة أمور ... منها ما هو مادي .. ومنها ما هو

معنوي .. (كالمعرفة وتفهم الموقف .. وتكوين العادات ... ومرور الوقت) الخ .. فإما أن تهبط وإما أن تزول .

ومنها (التغييرات الجسمية) التي تصاحب الانفعالات .. كالغضب والخوف والحب .. الخ .. ومنها (أثر الوراثة) .. والمحيط (البيئة) التي قد تؤدي الى التربية السليمة والسلوك السليم .. أو الى التكيّف .. أو الى الانحراف .. الخ .

هذا هو الموجز عن علم النفس الحديث ... أما عن العلم القديم فاني سأستشهد بكلام العرب .. وتفهّم مدى قدرتهم على سبر أغوار النفس البشرية .. نقلته من كتاب (الصناعتين).. كلام جوهر .. وقول جميل .. اسمعه يرن في أذني ... فيؤثر في النفس .. وأتمنّى أن يرن في أذنك .. لعل نفسك تتأثر .. اسمعه وهو يَغوص في اعماق النفس العربية .. (فإذا الكلام قد جمع العذوبة والجزالة .. والسهولة .. والرصانة ... مع السلاسة والنصاعة ... واشتمل على الرونق والطلاوة .. وسلم من حيف التأليف .. وبَعد عن سماجة التركيب .. وورد على الفهم الثاقب قَبِلَه ولم يردّه ... وعلى السمع المصيب استوعبه ولم يمّجه .. وعلى النفس تقبل اللطيف وتنبو عن الغليظ .. وتقلعه من الجاسي البشع ... وجميع جوارح البدن وحواسه تسكن الى ما يوافقه ... وينفر عما يضاده ويخالفه ... والعين تألف الحسن ... وتقذى بالقبيح ... والأنف يرتاح للطيب وينفر للنتن ... والفم يلتذ بالحلو ويمج بالمر .. والسمح يتشوف للصواب الرائع .. وينزوي عن الجهير الهائل ... واليد تنعم باللّين الى المألوف .. ويصغي الى الصواب .. ويهرب من المحال .. وينقبض عن الوخم .. ويتأخر عن الجافي الغليظ .. ولا يقبل الكلام المضطرب الا الفهم المضطرب أو الروية الفاسدة) .. انتهى .

من كل ما فات .. وقفت موقف (الجامع) فقط ... أما التحليل فسوف أتركه للقارىء الكريم ... ولصاحب الفائدة الذي أريد منه أن ينعم النظر فيما أقول ... ومن ثم يميز الطيب من الخبيث .. ومن بعد هذا كله .. يتقرب الى السليم ويبتعد عن السقيم .

أنا معجب كل الأعجاب بالشاعر المتنبي .. اعجاباً يستحقه هو.. ولا لوم علي في ذلك .. فهو الذي يقول :

وما أنا وحدي قلت ذا الشعر كله
ولكنْ لشعري منك من نفسه شعرُ

١ — فلقد كان شاعراً جذاباً مؤثراً في قوله ووصفه وتعبيره .

٢ — ولقد كان شاعراً حكيماً يتحكم بالعقل والمنطق فيما يقول .
٣ — ولقد كان (في رأيي) محللاً نفسانياً اعطيه شهادة (الدكتوراه) بلا تردد .
٤ — انني لم آت بشيء جديد ... فلقد كان محللاً نفسانياً للفرد .. وللمحيط .. ولكل المجتمعات التي عاش بها .. بطبعه وسليقته .

٥ — وأكثر من هذا ... فقد كان محللاً نفسانياً لذاته هو ... وأن بالغ في بعض الأحيان .. ويسرني أن تسمع منه ما يقول : —

وقد ذقت حلواء البنين على الصبا
فلا تحسبني قلت ما قلت عن جهلِ .

أو

وما التّيه طبّي فيهمُ غير أنني
بغيضٌ الى الجاهل المتعاقِل

٦ — للحقيقة أقول .... أنا لا أعتبر المبالغة عيباً فيه ... فقد كان ذا فنٍ في مبالغته .. لا سيما وهو في أطار الحكمة والعقل والواقع .. فقد كانت تلك المؤثراتُ تظهرها على شكلِ (علاج نفساني) يشهد لصاحبه بالفهم الثاقب ... للأسس والأصول .

٧ — وبالمقارنة ما بين (ما قال) هو ... وبين ما جاء به (علماء النفس) المعاصرون ... نجد ركائز متعددة يتفق معهم فيها .. وبالخصوص :

أ — الدوافع والرغبات .
ب — السلوك والمعاملات .
ج — الماضي ... قد استعمل فراسته الفطرية .. وفهمه الثابت .. في الفحص والعلاج الإجتماعي .. بينما الحاضر .. عرّضها للأسس والقواعد العلمية .
هـ — الماضي .. قد أدخل الخبرة والتجربة (الواقعية) .. في تعامله مع الفرد والمجتمع .. بجميع أصنافهم .. بينما الحاضر أدخل التجربة العلمية والتطبيق العملي .

هذا هو عنوان خلوده .. لم يأت على أنه أنموذج أو مظهر من مظاهر عصر أو مجتمع .. أبداً .. وانما لأنه قد دخل في كل نفس .. وأثر في كل عقل .. وها أنذا أودعه وهو يمشي في طريقه الى المستقبل ... المستقبل اللانهائي .. ونحن سوف نبقى ها هنا ثم نختفي .. وليس لنا من عمل الا تمجيد الخلود ورواد الخلود ... نردد معهم أقواله الخالدة : —

١ — لا تعذر المشتاق في اشواقه
حتى يكون حشاك في أحشائه
٢ — فرب كئيب ليس تندى جفونه
ورب كثير الدمع غير كئيب
٣ — ضروب الناس عشاقٌ ضروبا
فأعذرهم اشفّهم حبيبا
٤ — وشيخ في الشباب وليس شيخاً
يسمّى كل من بلغ المشيبا
٥ — اذا لم تكن نفسُ النسيب كأصله
فما الذي يغنى كرام المناصب ؟ !

٦ — وما قُربت اشباه قوم أباعدٌ
ولا بعدت أشباه قوم أقارب
٧ — وكل امرىء يولي الجميل محبب
وكل مكان ينبت العز طيِّب
٨ — وأظلم أهل الظلم من بات حاسداً
لمن بات من نعمائه يتقلب
٩ — وحيد من الخلان في كل بلدة
اذا عظم المطلوب قلّ المساعد
١٠ — وكل يرى طُرق الشجاعة والندى
ولكن طبع النفس للنفس قائد
١١ — فان قليل الحب بالعقل صالح
وأن كثير الحب بالجهل فاسد
١٢ — اذا أنت أكرمت الكريم ملكته
وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا
١٣ — ووضع الندى في موضع السيف بالعلا
مضرّ كوضع السيف في موضع الندا
١٤ — فإن الجرح ينفر بعد حين
إذا كان البناء على فساد
١٥ — فلا مجد في الدنيا لمن قل ماله
ولا مال في الدنيا لمن قل مجده
١٦ — وفي الناس من يرضى بميسور عيشه
ومركوبه رجلاه والثوب جلده
١٧ — كثير سهاد العين من غير علة
لؤرقه فيما يشرفه الفكر
١٨ — ومن ينفق الساعات في جمع ماله
مخافة فقر فالذي فعل الفقر
١٩ — والغنى في يد اللئيم قبيح
قدر قبح الكريم في الأملاق
٢٠ — قد استشفيت من داء بداء
تبيّن من بكى ممن تباكى
٢٢ — وكنت أعيب عذلاً في سماح
منها أنا في السماح له عذول
٢٣ — يراد من القلب نسيانكم
وتأبى الطباع على الناقل

٢٤ — ومثلك لا يُبكى على قدْر سنّه
ولكن على قدر المخيلة والأصيل
٢٥ — ولم أر اعصى منك للحزن عَبرة
وأثبتَ عقلاً والقلوب بلا عقل
٢٦ — ومن كان ذا نفسٍ كنفسك حرةٍ
ففيه لها مُغْنٍ وفيها له مُسلي
٢٧ — وما الدهر أهل أن تؤمّل عنده
حياة وأن يُستاق فيه الى النسلِ
٢٨ — فلا تنكرنّ لها صرعةً
فمن فرح النفسِ ما يقتلُ
٢٩ — وقد أراني الشباب الروح في بدني
وقد أراني المشيبُ الروحَ في بَدَلي
٣٠ — أقلْ أنل أقطعْ أحمل عَل سل أعدْ
زد هش بش تفضّل أدن سُرّ صِلِ
٣١ — يهون علينا أن تصاب جسومنا
وتسلم أعراضٌ لنا وعقول
٣٢ — أجد الحزن فيك حفظاً وعقلاً
وأراه في الخلق ذعراً وجهلا
٣٣ — ولذيذ الحياة انفس في النفس
واشهى من أن يحلّ وأحلى
٣٤ — آلة العيش صحة وشباب
فاذا وليا عن المرء ولّى
٣٥ — أشد الغم عندي في سرور
تيقّن عنه صاحبه انتقالا
٣٦ — وأشرف فاخر نفسا وقوماً
وأكرم منتم عمّاً وخالا
٣٧ — ومن يكُ ذا فم مرٍ مريض
يجد مراً به الماء الزلالا
٣٨ — سرورك أن تسر الناس طراً
تعلمهم عليك به الدلالا
٣٩ — ما كل من طلب المعالي نافذاً
فيها ولا كل الرجال فحولا
٤٠ — جمح الزمان فما لذيذ خالصٌ

مما يشوب ولا سرور كاملُ
٤١ — يريك مخبره أضعاف منظره
بين الرجال وفيها المال ولآل
٤٢ — واذا كانت النفوس كباراً
تعبت من مرادها الأجسام
٤٣ — فكان احسن خلق الله كلهم
وكان احسن ما في الأحسن الشيم
٤٤ — على قدر أهل العزم تأتي العزائم
وتأتي على قدر الكرام المكارم
٤٥ — وتعظم في عين الصغير صغارها
وتصغر في عين العظيم العظائم

الدكتور يوسف عبدالله الحميدان
٩٩/٦/٥ هـ